من القصص الحديث

رجل بلا روح

للكاتب الانجليزى كانتين ريفولد

بقلم الأديب احمد رفعت حمزة بك

كانت سونيا الحسناء ، وبيتر ستونهلم ، وذلك الذى يدعونه نيكولى ، تتشبح أمامى من لحظة للحظة ، وتتمثل فى خاطرى من حين لآخر وكنت إخال أنى أسمعهم يتناقلون الحديث ، ويتساجلون القول ، وأنا جالس أرهف الأذن لحديث ألفون جنتر الذى كان يروى قصتهم على كثب منى

ولقد عدت إلى منزلى ظهر ذلك اليوم الذى نال فيه بيتر ستونهلم جائزة نوبل للسلم ، وتناقلت اسمه الأفواه ، ولهجت بذكره الألسن ، وكان الرأى السائد فى العالم أنه منجى الانسانية ، ومنقذ العالم من ويلات الحروب

ومنذ شهور قلائل أعلن ستونهلم على ملأ من العالم أنه وفق إلى اكتشاف علمى جليل ، يحمى العالم من الغاز السام على اختلاف أنواعه ، وتعدد حالاته ؛ ولم يخص بهذا الاكتشاف الجليل دولة من العالم تتدرع به ضد غيرها ، وتتحرز به من أعدائها ، بل وهبه للعالم أجمع . وقد أذيع اكتشافه فى الآفاق على موجات الأثير من مركز الاذاعة فى لندن بخمسة عشر لسانا . وكان الحديث الدائر على الأفواه أن ستونهلم أكبر محب للانسانية وأعظم معضد للسلام على الرغم من مهاجمة صحف النازى له فى ألمانيا ، فقد كانت ترى أنه كان من الواجب أن يذكر فضل وطنه عليه ، ويخصه بهذا الاكتشاف الجليل .

ولقد دعانى ستونهلم ظهر ذلك اليوم فى جملة من الأصدقاء والعلماء فلبيت دعوته وأسرعت إليه

وكان بيتر ستونهلم مديد القامة ، أشيب الرأس — على الرغم من أنه لم يوغل بعد فى الشيخوخة — أزرق العينين ، صافى المقلتين ، يبدو فيهما أثر الحزن والتفكير العميق ... قال أحد المدعوين :

— إنه يبدو عجيباً حقاً أن ستونهلم الذى افتن فى اختراع المهلكات ، وتفانى فى ابتداع عُدَدَ الموت إبان الحرب ، هو عينه ستونهلم الذى ينال اليوم جائزة نوبل كأول خادم للسلام العام . فاطرق ستونهلم لحظة ثم قال :

— هذا عجيب حقاً ... ولكن لا تنس

ياصديقى أن « الديناميت » و « البارود » وغيرها من المفرقعات كانت من إنتاج قريحة الفريد نوبل نفسه الذى يتقدم اليوم بجائزته إلى محبى السلام العام ... فقال آخر

— وعلى ذكر هذا أقول : لماذا اختار الدكتور ستونهلم لفظ « سونيافين » اسما لاكتشافه على ما فيه من غرابة ؟.. ثم ستونهلم بيده على جبهته ثم قال :

— حقاً إنه اسم غريب ولكنه بقية ذكرى فى نفسى ، وحلم سعيد كان مصيره الزوال ، كباقى الأحلام ... !

— حلم ! هذا عجيب ! أيعنى الدكتور أن هذا الاسم أضغاث أحلام فى ليلة ما ؟

— ليلة ما ! كلا ياصديقى فقد استغرق حلمى عامين ... والآن يا ساحبى دع هذا جانباً فانه يثير فى نفسى ذكريات أليمة

وانتقل الحديث من هذا الاسم الغريب ، ومن ذلك الحلم الذى استغرق عامين إلى نواح متعددة ، وشجون مختلفة ، حتى انفرط عقد الحفل ومضى كل لسبيله

عدت إلى منزلى ، فوجدت البارون الفون جنتنر فى انتظارى ، ولما علم أننى كنت فى ضيافة بيتر ستونهلم ... سألنى :

— وكيف كان يبدو ستونهلم ؟

فضحكت وقلت :

— على خير حال ياصديقى ... اللهم إلا عند ما سأله أحدهم عن سبب اختياره لفظ سونيافين اسما لاكتشافه الجديد ... فقال فى دهشة وعجب :

— يا إلهى ! أسألوه عن ذلك ؟... كان ينبغى ألا يخوضوا به إلى تلك الذكرى المؤلمة ... إننى على الرغم من كونى أقرب أصدقائه لا أجرؤ أن أجرى أمامه مثل هذا الحديث

— حقاً إنك أقرب أصدقائه ... وأظنك تعلم عن هذا الرجل ما خفى عنا ؛ فما الذى دعاه بعد أن أورد جيوش العالم موارد التهلكة ، عما ابتدعه من مهلكات ، أن يجعلها عليهم اليوم برداً وسلاماً ؟ وما الذى حداه إلى اختيار هذا الاسم العجيب الذى حير الأذهان ؟

— حسن ياصديقى ... سأخبرك بذلك ، وإنها لقصة عجيبة أنت أول من يحظى باستماعها ... أجل سأحدثك الآن عن ستونهلم ، وعن سونيا ، وعن ذلك الرجل الخالى من الروح الذى يدعونه نيكولى .

فقلت فى دهشة :

— الخالى من الروح ؟ ولكن لكل الرجال أرواح يافون جنتنر

— مهلاً مهلاً ... لا تتسرع ياصديقى

واعتدل البارون فى جلسته ، ثم أخذ يسرد على مسمعى قصته فقال :

عرفت الدكتور بيتر ستونهلم لأول مرة خلال الحرب الأخيرة ، وكان كوكباً زاهراً فى عالم الاختراع ؛ وقد بدأ حياته بالاشتغال بالنظريات الرياضية ، ثم تعلق علم الطبيعة ، وشغف بالكيمياء فكانت خفاياها وأسرارها كالكتاب مفتوح يتملى منه آراءه ، ويستوحى أفكاره ، وبمرور الزمن وتعاقب الأيام تمكنت بيننا أواصر الصداقة ، وتوثقت عرى المحبة ، وكثيراً ما كان يحدثنى عن مطامحه وآرائه وعن بحوثه الطويلة فى الجهد والطاقة ، وكثيراً ما ردد على مسمعى قوله :

— إن حرب المستقبل لن تكون قط حربا بين جيوش ، بل ستكون الآلات عدتها ، والعلم عدتها .. فأجبت مداعبا

— لن أجاريك فى رأيك هذا ، حتى تخترع

لنا إنسانا يستطيع أن يفكر

— هذا ما أرجو تحقيقه يا فون جنتر

— وماذا عساك تصنع بهذا الانسان إذا وفقك الله إلى إبراز ما فى مخيلتك ؟

— الحرب يا عزيزى دون شك . . . إن العالم ما زال يعتمد على الانسان فى الحرب على الرغم مما يفقد من الجيوش ، وبرغم ما فى الانسان من غرائز الخوف والهرب . . . إنى آخذ أهبتى للحرب المقبلة وسأملأ بهذا الانسان وأمثاله ساحات الوغى ، وسأزودهم بأشعة الموت عوضاً عن القنابل والبنادق .

فقلت ضاحكا :

— إنك سفاك دماء يا بيتر . . أتبغى أن تكتسح العالم وتسحق جيوشه بما تسميه علما واختراعا ؟

— إنى أرى أن العالم لم يتقدم قيد شعرة ، ما دام الانسان يلعب دورا هاما فى الحروب . . . وسأعمل من الآن على تحقيق مأربى فى ضوء تلك النتيجة التى وصل اليها اينشتين سنة ١٩٠٥ « إن المادة يمكن تحويلها الى طاقة ، وإن الطاقة يمكن تحويلها الى مادة » ، وأغلب الظن أن الشمس هى مصدر الطاقة والحركة ، ومبعث النشاط الانسانى ؛ وليس هذا عجيبا فالهنود يعبدونها من قديم . . . ، وربما أدركوا أنها سر تلك الحياة . ومحور تفكيرى الآن الذى أدور حوله هو أن الشمس مبعث الحركة ، وأن أشعتها هى مصدر النشاط الانسانى

وربما انتهت الحرب قبل أن يوفق بيتر فى إبراز فكرته الى العالم ولكنه كان دائب البحث ، دائم العمل ، يصل ليله بنهاره فى دراسة أشعة الشمس . وليس بعسير أن يأتى العالم بأشعة الشمس لفحصها فى معمله ، فقد يمكن نيوتن من اكتشاف جهازه « البكتروسكوب » الذى يمكن الانسان من دراسة الأشعة وفحصها فحصاً دقيقاً كما يفحص الطبيب مكروب الداء تحت منظاره

وسافر ستونهلم فجأة الى باريس لمواصلة دراسته مع العالم الفرنسى « جورج رابيه ليمتر » ثم عاد بعد سنتين وملء يديه الزهو بشيئين أولهما : الانسان الذى اخترعه ، وثانيهما : زوجته الحسناء الروسية سونيا ، قال :

— وستعجب بها يا فون جنتر . . لقد قابلتها فى باريس . . إنها إحدى نبيلات الروسيا اللواتى هاجرن إبان الثورة ، وضحك ثم قال :

— ولذلك ستراها الليلة ناقمة على الثورة والفلاحين . . . وسترى أيضاً آلتى التى ستعجب بها كثيرا

وأصدقك القول أنى رأيت تلك الليلة ما عجبت منه كل العجب : رأيت ذلك الانسان الذى تحركه الأشعة بدل الكهرباء ، ورأيت سونيا ستونهلم وكانت سمراء الوجه رشيقة القوام ، تجمع الى جمال وجهها رقة فى الحديث ، وظرفاً فى القول

وقد طرقنا فى الحديث شعابا شتى وشجونا عديدة إلى أن مال بنا الى الكلام عن الروسيا وثورتها فالتمعت عينا سونيا وقالت دون رَيْث ولا روية

— هؤلاء الفلاحون . . لعنة الله عليهم . . . لقد هدموا فى أمسيَّة ثائرة من الصروح الشيِّدة والبروج الممردة ما بناه أسلافنا فى دهور طويلة . . لقد قتلوا أبى . . وما نجوت من براثنهم إلا بشِقّ النفس . . . ويمكنك أن تفهم الآن لماذا لا يأخذنى العُجْب والزهو بأنى روسية . . ولماذا ترانى دائما ناقمة ساخطة على هؤلاء الفلاحين . . لقد كانت لنا أراض واسعة ، وسهول ممتدة ، وكنا نملك الألوف المؤلفة من هؤلاء الفلاحين ، فصفرت راحتنا ، وخلا وطابنا

وقد استرعى خاطرى قولها : « كنا نملك

الفلاحين » إذن فسونيا من هذا النوع الذى يملك الرجال ؛ ولا شك أنها تحس الآن من أعماقها أنها تملك بيتر ستوهلم ، فان يصبح بيتر ستوهلم من الآن ملكا للعلم كما كان من قبل

وحادث سونيا بجرى الحديث عن الروسيا فقالت :

— لقد حدثنى بيتر عنك كثيراً ياڤون جنتز ، وأخبرنى أنك قلت له إنك لن توافقه فى آرائه حتى يخترع إنسانا يفكر .

— هذا حق ... إن كان بيتر قد صنع مثل هذا الانسان فستصبح الدنيا تحت قدميه ... فضحك بيتر قائلاً :

— إننا لم ننته بعد ياڤون جنتز ... ولكن انهض بنا لنرى ما تم .

وكان المعمل فى الجناح الخلفى من المنزل ، فسرنا بصحبة بيتر فى ممر ضيق ، يبعث الرهبة فى النفس ، ويرسل القلق إلى القلب ، حتى بلغنا باباً أثقلته الحدائد ، وناء بما حمله من الرتاج ... فقلت ضاحكا :

— ما هذا ؟ ... أتخشى أن يسلبك اللصوص صاحبك يا بيتر

كلا ياصديقى ... بل أخشى أن يملّ ضيافتنا فيهجرنا .

* * *

وعالج بيتر الباب حتى فتحه فولجنا الغرفة ، وكان الظلام يجلل أركانها ، ويغشى جنباتها ، فضغط بيتر أحد الأزرار الكهربائية ، فتنمر الغرفة نور زاهٍ ساطع يعشى العيون ، ويبهر الأبصار ، ولكنه لم يثر من عجبى ، قدر ما أثار ذلك الجالس على المقعد فى وسط الغرفة . وما إن لمحه ناظرى ، حتى هب واقفاً فى رَيث وتؤدة ، كما يقوم الانسان العادى ، ثم أحنى هامته الحديدية معلناً تحيته فى اتداع وخشوع ، ثم امتدت يد بيتر إلى زر آخر ففاض فى الغرفة نور أزرق قاتم يقبض النفس فهاضت قوى ذلك الواقف أمامنا ، واسترخت مفاصله ، وجلس فى مقعده كما يجلس ابن السبعين وهو ينوء تحت أعباء السنين .

ومضيت أتفرس وجه ذلك الانسان ، وأنا مشتت النفس مشرد اللب إلى أن جذبنى بيتر من يدى قائلاً :

أرأيت كيف يحسن إنسانى تكاليف الحياة ونظام المجتمع ... إنه يتحرك بالأشعة كما رأيت ، وهذه الأشعة هى المؤثر الخارجى الذى يدفعه إلى التفكير كما تدفع الانسان مؤثراته الخارجية من جوع وخوف وفرح وغيرها ... ولقد أسميته « نيكولى » ولما رأيت فيه بعض مشابه من الفلاحين الروس ابتعت له هذه الملابس الروسية ... إنه الآن يفكر بعقل الفلاح الروسى ، على الرغم من أن تفكيره لم يزل فى مرحلة البداءة » ، وأطرق بيتر قليلاً ثم استطرد فى شرحه :

— ولقد زودته بمركز عصبى يقابل المخ فى

الانسان العادى ، فان مخ الانسان يقوم فى الجسم بمثابة مركز رئيسى تعاونه أعصاب مصدرة وأعصاب موردة ، فمثلاً إذا قربت يدك من مدفأة ساخنة حملت الأعصاب الموردة إلى المخ : أن ارفع يدك ، فيصدر المخ أمره عن طريق الأعصاب المصدرة إلى اليد برفعها ، فترفع يدك دون أن تحس بهذه الدورة العصبية .

فالشعاع الأبيض الساطع يؤثر فى مركز نيكولى العصبى فيجعله يقوم ويحيى ، والشعاع الأزرق يؤثر فيه تأثيراً مخالفاً فيجعله ينحنى ويجلس ... وكما أن هناك مواد تجذب الحديد ، فهناك أيضاً مواد تؤثر فى الأشعة وتجذبها ، ومنها صنعت مراكز نيكولى العصبى . واستطرد بيتر قائلاً :

وسيكون نيكولى وأمثاله من اللابين عمدة الحرب المقبلة ، فان يقف فى طريقهم إنسان ، ولن يفت فى عضدهم قتال ، أو يقل من غربهم سيف .

— وتسابقت إلى خاطرى صور عدة ، وتراحمت فى مخيلتى مشاهد كثيرة عن ذلك الرجل وأمثاله ، وهم يدخلون إلى المدن ، وقد سقطت تحت ريقهم ، ووقعت فى قبضتهم ، فأخذوا يحطمون ما صادف طريقهم من عوائق ، ويصرعون ما اعترض سبيلهم من جيوش ... فقلت :

— هذا حسن ، ولكن ماذا جنت عليك تلك الأرواح البريئة التى تزهقها بما كشفه علمك ، وأنتجته قريحتك ... فرفع بيتر كتفيه قائلا :

— وما قيمة الأرواح يا صديقى إذا هى وقفت فى سبيل العلم ؟

* * *

ومضت الأيام تتبع الأيام ، والشهور تترسم خطى الشهور ، إلى أن كان يوم قابلنى فيه بيتر مشرق الوجه ، منبسط الأسارير ، ودعانى لمشاهدة ما جد من أمر نيكولى ، وكانت تملأ عينيه المخيلة والمُجْتَبُ ، ويتملكه زهو الأبوة النجيبة بالولد الذكى النجيب .

وكانت شمس الطفل لا تزال تلقى على الكون وميضاً من شعاعها عند ما ولجنا غرفة نيكولى ففتح بيتر النافذة قائلا :

— لو اعتمدنا فقط على أشعة الشمس لنبعث الحياة فى أوصال « نيكولى » لرأيناه يموت فى الليل ويبعث فى النهار ، ولكنى رأيت استدامة لنشاطه ، وبقياً على حياته ، أن ألجأ إلى توليد أشعة الشمس فى المعمل ... ولكن انظر ... » وأشار الى نيكولى

وكانت أشعة الشفق الحمراء قد بدأت تغمر الغرفة ، وتفيض فى أرجائها ، فرأينا نيكولى يقوم فى تؤدة حتى يستقيم ، ثم يرفع ذراعه اليمنى حتى توازى كتفه ، ثم يستدير على عقبيه حتى يواجه الشمس الغاربة . فقال بيتر هامساً :

— « أرأيت ... » ، ثم استطرد قائلا ... « الآن عند ما تهبط الشمس الغاربة عن الأفق ... وتغيب على مدى ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، وينقطع شعاعها عن نيكولى تهمد حياته وتخمد حركته .

وكان الليل قد أخذ ينشر سجوفه الفاحمة ويرخى مسوحه المظلمة على الكون ، فأنزل نيكولى ذراعه ، وعاد الى مقعده ، ثم جلس فى صمت وحزن ... فقال بيتر :

— إننى لم أحاول بعدُ تعليل هذه الظاهرة العجيبة ... لماذا يرفع « نيكولى » ذراعه ويواجه الشمس الغاربة فى خشوع وخضوع ... » فالتمعت عينا سونيا . ثم قالت فى صوت مضطرب :

— هذه عادة الفلاحين فى روسيا ، فعند ما ترسل الشمس الغاربة نظرتها الأخيرة الى الكون ، يولون وجوههم شطرها رافعين الأذرعة ،

مبتهلين الى الله ... ونيكولى فلاح روسى ؛ فلا غرو أن يقفو أثر قومه ...

وكان وجهها شاحباً ، وعيناها ذابلتين يبدو فيهما ما يسيطر على نفسها من الرهبة ، وما يرمض قلبها من الألم » ورأى بيتر ذلك فقال مرفقاً عنها :

— مَهْلاً عنك يا عزيزتى ... إنك لست روسية بعد ... وأما هذا الانسان فما هو إلا آلة صماء خرساء ... فقالت متوسلة :

— ألا تَنْضو عنه هذه الثياب يا بيتر ... إنه يبدو فيها كالفلاحين اللذين كنا نملكهم يوماً ما .

فضحك بيتر ولكنه لم يخلع عنه الثياب . وأظن أن تلك الأمسيّة كانت بدء كراهية سونيا لنيكولى وسخطها عليه ... لقد كانت تعتقد أنها تملك بيتر وحدها دون شريك ، ولكنها اليوم ترى لها شريكا أشدّ ، وخصما ألدّ ، يفرقُ بينهما ، ويحول دونهما .

* * *

ومضت بضعة أسابيع لم أر فى خلالها بيتر الى أن قصدت ذات يوم لزيارته ، فوجدت سونيا وحيدة فى المنزل ، وكانت تبدو كالزهرة الذابلة ، فلا نضرة فى القسمات ، ولا وضاءة فى الوجه ، ولا بريق فى العينين ، وجلسنا نتحدث عن العلم وعن بيتر الى أن قالت :

— وماذا جد من أمر نيكولى ؟ أتراه فى طريق التقدم ؟

— نيكولى ؟ . . . لا تجر أمامى ذكر ذلك الاسم ... لقد أصبحت أبغضه من كل قلبى ... ألا تعلم أن بيتر يقضى معه آناء الليل وأطراف النهار دون أن يخرج من غرفته و ... فقاطعتها قائلا :

— ولكنه قريباً ما يتمه وينال به المجد والشهرة .

فقالت مرددة :

المجد والشهرة ؟ ... تلك أحلام يا صديقى ... لن ينال المجد والشهرة سوى نيكولى ... أما نحن فسنصبح فى زوايا النسيان بعد أن أنفقنا فى خلقه ميعة صبانا ، وأخلقنا جِدّة شبابنا ، حتى أصبحنا نخطو إلى الهزال والسقام ، كلما نخطو إلى الكمال والتمام »

وأطرقت قليلاً ثم رفعت رأسها كمن خطر له خاطر ثم قالت فى سرعة :

— فون جنتنر ... إن نيكولى أسير فى غرفته ، وأرى أنه لا بد محطم ذلك الباب ومحطمنا أيضاً إذا تقدم به العلم قليلاً :

— ولكن كيف يحطم سادته وأولياء نعمته ؟ كما حطم الفلاحون الروس سادتهم وأولياء نعمتهم

وهنا أدركت أن سونيا ورثت عن أسلافها من النبلاء ذلك الكره المتأصل فى نفوسهم للفلاحين ، وأنه قد دخل فى روعها أن نيكولى فلاح روسى ... فنهضت قائلاً :

— سونيا ... هيا بنا إلى غرفة نيكولى ... سأريك أنه ليس إلا آلة بسيطة يمكن الطفل أن يحركها ... هيا ...

— اقنعنى بذلك يا ڤون جنتز ... اجعلنى أعتقد ذلك ... اجعلنى أعتقد أن نيكولى ليس إنساناً

وأخذت بيدها الى المعمل ، وكان نيكولى جالساً كعادته فى ملابسه الروسية ، وكان يبدو عليه أنه أقرب الى الانسانية من ذى قبل ، ونظرت فاذا سونيا ترمقه من خوف . فقلت لها وأنا أشير إليه :

— بضع مئات من الأرطال الحديدية : هذا كل ما فى الآلة

— هذا كل ما فى الآلة : كلا ياسيدى ...

وأسرعت إلى النافذة ففتحتها ، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب ففاضت فى الغرفة أشعة الشفق فقام نيكولى كعادته ، مولياً وجهه شطر النافذة رافعاً ذراعه اليمنى ... فقلت

— هذا عمل آلىّ محض ... ! ثم استطردت ضاحكاً :

— سونيا أتخشين رجلاً خالياً من الروح ... خالياً من الشعور

وارتفع فى تلك اللحظة صوت من أقصى الغرفة مترنم الجرس متسق النبرات ، وقد عرفت فيه صوت بيتر يقول :

— ومن هو ذلك الرجل الخالى من الروح ؟

فأسرعت إليه قائلاً :

— بيتر ... إن سونيا لا يمكنها أن تصبر أكثر من ذلك ... إنها تعتقد أن نيكولى يقف حجر عثرة بينكما ، أخبرها أنه ليس إلا لعبة يتسلى بها عقلك ، وآلة تتلهى بها يداك ... فمر بيتر بيده على جبهته ثم تقدم لسونيا قائلاً :

— سونيا ... إننى لست لأحد سواك ، وما صنعت تلك الآلة الا لأخلد اسمك بجوار اسمى ، والا لأجعلك مزهوة بأعمالى ؛ وإن لفظة منك لتجعلنى أحطمه تحطيما »

وأشرق وجه سونيا ، وبان الرضا فى عينيها ، وبدت كمن ألقى عن نفسه عبئاً ثقيلاً آده وبهره ... وتحولت فجأة إلى نيكولى حتى لمست صدره ، وكان لا يزال رافعاً ذراعه ، فصاحت به :

— ما الذى يجعلنى أخافك أيها الانسان الآلى ؟ إنك فلاح ونحن النبلاء لا نخشى الفلاحين . إنك خادم لنا ولعبة فى كفنا .... إننى لا أخافك ولا أرهبك فأنت عاجز عن أن تمسنى بسوء ...

وفى طرفة عين ، ودون إنذار أو تحذير سقطت تلك الذراع الحديدية الثقيلة على رأس سونيا ، كما يسقط الحجر على بيضة الطائر فيهشمها تهشيما

* * *

ووقف كل منا فى مكانه مشدوهاً من هول الحادث ، ومضت برهة قبل أن نجمع أشتات عقلينا وعلق بصرى نيكولى ، فرأيته يجلس فى هدأة وسكينة ... وصمد فى رأسى ذلك السؤال فجأة . « لماذا أسقط نيكولى ذراعه فى تلك اللحظة ؟ » وفجأة تذكرت أن الشمس قد هبطت عن الأفق ، وغابت على مدى ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، وأن الظلام عاد يُرخى سدوله وينشر مطارفه السود على الآفاق

ونظرت الى بيتر وكان وجهه الشاحب كوجوه الموتى ، جامداً لا يتحرك ، شاخصاً لا يطرف . واستدار على عقبيه فجأة دون أن ينبس ببنت شفة ، وخرج من الغرفة ثم عاد بعد قليل وبين يديه قضيب ثقيل انهال به على نيكولى فحطم رأسه ، وهشم أوصاله حتى ملأت أرض الغرفة . وكانت سونيا تسبح فى بركة من الدماء ، فتقدمت الى جثتها ونقلتها الى غرفة أخرى ثم عدت الى بيتر وكان مستغرقاً فى ذهوله ، وما رآنى حتى قال دون أن يعى ما يقول :

— ڤون جنتر ... أكان نيكولى آلة حقاً ... أم كان إنساناً يعقل ما يفعل ؟ أترانى خلقت فلاحا روسياً يحقد على النبلاء ، وتفيض نفسه بالانتقام ؟

— هذا توهم يا صديقى ... إنك لم تبتدع إلا آلة كان موت سونيا خطأ منها .

فنظر إلى بوجهه الساهم الحزين ثم قال :

— ڤون جنتر ... إننى لم أقدر قبل الآن تلك الصلة الروحية التى تربط الناس بعضهم ... وأظنك تعلم مبلغ حبى لسونيا ، والآن وقد قضت نحبها فانى أحس أنى قضيت معها نحبى ...

لقد أزهقت آلاتى إبان الحرب من الأرواح البريئة ما يعجز عن حصره البيان ... وكل روح من تلك الأرواح ... لا بد أن كان هناك من يألم لها ألمى الآن على سونيا

وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه قائلاً فى حزن :

— لقد كان العلم فى يدى أداة لأهلاك العالم وتدمير الأرض ، فلم لا أجعله أداة لأسعاد العالم وخدمة الانسان ؟

يمكنك أن تعمل على ذلك يا بيتر ... ولقد وهبك الله قريحة هى خير من يخدم العالم إن شاءت ، فأجاب فى ألم :

— حقاً ... حقاً ... سأعمل على ذلك يا ڤون جنتر ، سأصلح ما قدمت يداى ، سآسو جراح العالم ، وأدرأ عنه ويل الحرب ...

* * *

واستقام الڤون جنتر واقفاً ، وسار إلى الشرفة فى خطوات متزنة ، وكانت الشمس قد هبطت عن الأفق ، وغابت على مدى ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ، وبدأ الليل ينشر ذوائبه الفاحمة ويرخى نقابه الأسود على الأفق ، فاستدار الڤون جنتر إلىّ قائلاً :

— لقد كنت تريد أن تعرف لماذا يؤثر ستونهلم الآن خدمة السلام العام .. ولماذا اختار اسم سونيا عين اسما لغازه الجديد ...

— « حسن ... لقد أخبرتك »

أحمد فتحى مرسى